العلم

للكاتبة الإنجليزية لويز هيلجرز
بقلم الأديب جورج سليستى

انصدع عمود الفجر ، وتمشت طلائع الأنوار فى حواشى الليل تمشّى الأمل الوضىء فى حنايا القلب البائس الملتاع ؛ وأطلت مليكة النهار في محفتها النارية فاترة الطرف تنثر بسمات ثغرها الشنيب ذات اليمين وذات اليسار ، فتهللت الدنيا واطلقت الكائنات ؛ واسترسلت ذوائب الأضواء على السهول الفيح فاهتزت الأغراس وارتعشت السنابل ، وانطلق نسيم الصباح البليل فوق المروج والحقول يهمس فى آذان الزهر هينمات الهوى ، ويتمتم فى مسامع النباتات أسرار الغرام ، وسبحت فى رحاب الأجواء وفود الأطيار تسكر السماء بزقزقاتها ، فيترنح لأغاريدها قلب الأثير ، وتميد لأناشيدها أعطاف الأفق ، وانحسرت مرائى الطبيعة الفاتنة فى تلك السهول المنبسطة الخضراء عن منزل وضيع قائم حف بباحاته مخضل النبت وساوره ندىّ العشب ، فبان فى روعة الصباح الضحيان منزلاً من منازل الخلد جاثماً فى دعة تفتن اللب فى إطار من الخضرة السندسية يأخذ بمجامع القلب . منزل وادع اطمأنت به أسسه في تلك الربوع الغرّ التى يظللها العلم الفرنسى المثلث الألوان اطمئنان أهليه النائين عن ضجيج الحياة وجلب المجتمع الصاخب .

وخرجت من المنزل فتاة فى مستهل الصبا ومطلع الشباب تتألق منها الأسارير بالوضاءة ، وتفيض منها القسمات بالحسن ، وقد زادها ثوبها القروىّ البسيط جمالاً فطرياً محببا إلى القلوب ، ومشت كفيئة الخطى إلى دجاجاتها تنثر عليها الحب مفترّة الثنايا ، والأفراخ تتصايح حولها صيحات الفرح وتقفز حيالها مرحة مسرورة . فلما فرغت من شأنها مع دواجنها تخطرت بقدها اللدن الممشوق على بساط العشب المتوج الهامات بأنداء الصباح ، وراحت ترمق السماء بعينين حالمتين تفيضان وداعة ولطفاً ، وتتأمل فيما يكتنفها من المرائى الساحرة بسذاجة الولد الغرير

ووقع نظرها على سحابة زرقاء تتصاعد من وراء الغابة فى مطاوى الأفق ، ثم على أخرى مرفوعة على مناكب الهواء السجاج البارد ، فوقفت مبهوتة سادرة لحظة أو لحظتين وهزت كتفيها فى مرارة واشمئزاز وقالت : « الحرب ... مرة أخرى يا لنكد الطالع ! » ورفست الأرض برجلها حانقة غضبى

إن القدر ليأبى أن تكون السعادة إلا مشوبة بالكدر ، والاطمئنان إلا مقترناً بالقلق والاضطراب ؛ وسنّة الدهر الخؤون ألاّ يحرم الناس لفتاته المرة بين الحين والحين كأنما يعز على القضاء الواغل أن يفلت امرؤ من إساره

والحرب ؟ ! أى جدى فى الحرب وأى نفع ؟ !

إنها النكبة الكبرى والطامة العظمى ، تنثر الدمار نثراً فتقوض معالم المدنية والعمران ، وتطوح بالشباب إلى مهاوى الردى ، وتبعث بهم إلى أشداق الموت لقماً سائغة هنيئة !

أما المجد والسؤدد ، أما العز والفخار ، فليست إلا كلمات جوفاء لا معنى لها إلا عند الجشعين الألى يتخذون من جماجم الضحايا وأشلائها سلماً لمطامعهم ومآربهم ، فيا للصبا المغدور ، ويا للدم المهدور!

والشباب زينة الحياة وبهجتها ، وذهابهم ذهاب الأماني وتلاشى الأحلام ، ونأيهم تصويح لمستقبل الفتيات العتيد . فالحرب إذن نكبة عند النساء فادحة تلمس منهن الوتر الحساس فى الصميم ، وتسىء إليهن إساءة ليس إلى اغتفارها والصفح عنها من سبيل !

كانت نظرات الفتاة معلقة فى سحب الدخان وهو يسمو نحو الأعالى ، وفكرها محصوراً فى الحرب وويلاتها والمساوىء التى تلحق من جرائها ببنات جنسها ، وتاهت فى تفكيرها العميق الذى شغلها عن نفسها حتى أنها لم ترَ رجلا يزحف بين السنابل الخضراء ، ولا سمعت وقع خطاه وهو يعدو على بضعة أمتار منها ممزق الثياب متربها ، ولم تفق من غمرة التفكير إلا على صوته الذى أرسله بحذر وهو يسرع إلى باحة المنزل ويحتمى ببابه

هو شاب فى مقتبل العمر عليه بزّة الجندى الفرنسى قدعلت محياه الوسيم أمائر الوصب المرهق ، وتجلت فى نظرات عينيه دلائل الجزع ، فما إن وقع عليه بصرها حتى صاحت مرتاعة :

— « يا إلهى ! لكم أرعبتنى ! »

فوضع سبابته على شفتيه الرقيقتين اللتين انفرجتا عن همسة ناعمة مدلولها الصمت ، ثم شاعت على قسماته بسمة كئيبة خرساء ، كان لها فى نفسها هى أبلغ الأثر . ولم يلبث روعها أن أفرخ وبالها أن اطمأن ، فتقدمت إليه وأسندت ذراعها إلى الباب حياله ، وقالت له بصوت رقيق أودعته الكثير من العذوبة والحياء :

— « يلوح لى أنك قادم من معركة إخال أن رحاها ما تزال دائرة هناك . أليس كذلك ؟ »

وأشاحت برأسها نحو الغابة التى ما فتىء الدخان يتصاعد من ورائها كثيفاً داكناً

وألقى الرجل عليها نظرته فرآها تحدق فى الأفق وقد انقبضت منها الملامح وتجهمت ، واصطكت أسنانها من غيظ كظيم . فقال وقد فار حنقه ولمعت عيناه بوميض الغضب :

— « هؤلاء الألمان الخنازير لا همّ لهم إلا قتل الأبرياء وإراقة الدماء ! ليست فرنسا هى التى يريدون فما هم بحاجة إلى زرعها ولا إلى أرضها ، وإنما الفتك بأهليها مايبتغون . إن إزهاق أرواح الناس مبتغاهم ، وسفك الدم غاية مناهم ؛ إنهم وحوش ضارية لا يلذ لهم إلا مرأى النجيع المهدور يترقرق على الثرى ، وإلا الأشلاء المبعثرة هنا وهناك على أديم الأرض . لقد هجموا علينا لجأة شأنهم فى كل غاراتهم الغادرة وحصدونا برصاصهم حصداً »

ورجع خطوة إلى الوراء ، وأسند ظهره إلى الباب وضحك ضحكة صفراء ، يحسبها السامع لجفافها شهقة محتضر ثم قال :

— « أحسب أننى الرجل الوحيد الذى لا يزال من كتيبتنا على قيد الحياة . لقد قتلوا أفرادها جميعاً ولم ينج من الموت المحتم إلا أنا ... لقد مات رفاق

كلهم وإنى على آثارهم لمقتفٍ . إن هى إلا ساعة أو بعض ساعة ألفظ بعدها ... »

وتوقف عن الكلام ، فساد المكان صمت رهيب ، وخيم عليه سكون فاجع . فريعت الفتاة ، وتقدمت إليه مرتمشة ، ومدت يدها النحيفة السمراء ، وقالت بلهفة الجازعة :

— « ما بك ؟ أمصاب أنت بجرح يحتاج إلى تضميد ؟ أألمٌ بك مكروه ؟ دعنى أحضر لك جرعة من الماء القراح ، أو أقدم إليك المساعدة التى تبتغى ؛ أفصح بربك ... قل ... أيعوزك شىء ما ؟ أتريد ماء أو ... ... ؟ »

فهز رأسه والألم يكبت منه الروح ، وتحيرت على ثغره الذابل بسمة هزء بانت من ورائها أسنانه اللؤلؤية البيضاء ، وأطلق من صدره المعنّى آهة اضطرب لها جسده الواهن المنهوك وقال :

— « إن زمنى يا فتاتى قد تصرم وانقضى ، ولم يبق لى من الحياة إلا دقائق معدودات . لقد استقرت فى صدرى رصاصة جانية ، والثغرة التى فتحتها فيه ضمينة بالقضاء على أشد الرجال عزماً وأقواهم بنية ، وقد ألفظ أنفاسى الأخيرة بين يديك يا فتاتى ، ولكن لا . لى ما أقوله لك قبل رحيلى الأبدى من هذه الدنيا الفانية ... وصيتى الأخيرة قبل أن تفارق روحى جسدى »

قال هذا ومدّ يده إلى صداره وانتزع من بين ثناياه قطعة من القماش الملون طويت بترتيب كلى ، وقدمها إليها وقال : « انظرى ! »

فتطلعت الفتاة إلى ماقدمه إليها الجندى الجريح وصاحت بدهشة واستغراب لا حدّ لها :

— « ولكن ما هذا ... ؟ »

فرفع إليها نظره الخافت وقال بصوت أجش :

— « لقد نجوت به منهم . أجل ، لقد أنقذته ولكن بعد أن دفعت فى سبيل إنقاذه حياتى ... وإنها لثمن بخس ... ! »

وبسط القطعة المطوية برزانة وهدوء ، ثم استطرد :

— « إنها عَـلَم فرنسا الغالى . لقد فنى أفراد الكتيبة جميعاً ولم يسلم منها إلا هذا اللواء المفدى... لقد نال هؤلاء الألمان اللاعين كل شىء ما عداه ، فهو وحده لم يمس ... لقد أحرزوا النصر ووفقوا إلى نيل الظفر المنشود بعد أن أزهقوا أرواحنا وأهرقوا دماءنا ... إيه أيتها الفتاة ... »

وكف عن الكلام هنيهة ، ثم أمسك معصمها الذى لوحته حرارة الشمس دون أن تسفعه ، وهزّه هزة استجمع لها كل ما فيه من قوى وتابع :

— « عليك أن تحتفظى بهذا العلم احتفاظك بنفائس الأعلاق ، وأن تصونيه صيانتك لأقدس ما عندك . أتسمعين ؟ »

فأجابت بشىء من الجرأة والدالة :

— « ما لنا وللعلم الآن يا هـذا ، دعنا منه ولندبر أمر إنقاذك »

وتفرّست فيه لتتبيّن أثر كلماتها فى نفسه ، فرأته وقد زوى ما بين حاجبيه وكلح وجهه جامد النظرات سادر الطرف لا يحير ، فلم يكن منها إلا أن أمسكت اليد التى أطبقت على معصمها بقوة ، ودلت عليه برقة ، ورمقته بنظرات فاترة تتيم قلب الخلى واستأنفت قولها :

— « إن العلم على كلّ حال لايتعدّى كونه قطعة من قماش ، وأما أنت فملء برديك الشباب

النضير ، وأمامك مستقبل وضيء ملؤه الآمال ، وأنا ... أريدك أن تحيا ... سأحاول جهدى لأنجّيك وأعيد إليك قواك وعافيتك ، ولن أدّخر وسعاً فى سبيل برئك وشفائك وضمان سعادتك وهنائك »

وتوقفت عن كلامها مرة أخرى لحظةً واحدة فقط حدقت خلالها فيه ومقلتاها تشمّان بوميض غريب ثم قالت :

— « فى وسعى أن أخبئك فى مكان لا تُرْفع إليه عيونُ أعاديك ، ولن ينالوك عندى مهما تألبت جموعهم وكثرت علىّ ، فالتمويه على هؤلاء الخنازير الأغبياء سهل ميسور »

وما كادت شفتاه تنفرجان عن آخر لفظته ، حتى كان هو قد انتزع يده من قبضتها انتزاعاً وصاح بها :

— « خبئى فرنسا بدلاً منى . إيه أيتها العذراء ما أراكِ تفقهين ما أقول ؛ إن العلم هذا هو فرنسا بعينها ، متجسمةً فيه بكرامتها وإبائها ومجدها التالد والطارف ، وشممها الأنوف النبيل ، ويجب ألا يصل إليه أعداؤنا الألمان بوجه من الوجوه ، أتفهمين ؟! »

كان يتكلم بشيء غير يسير من الحدة والغضب ؛ والحدة والغضب خلّتان مأثورتان عن الفرنسيين جميعاً لا تكاد تستثنى منهم أحداً ؛ غير أنه لم يلبث أن انفثأتْ حدّته واستكان ، وانطلق يطوى اللواء طيّاً سريعاً ومقلتاه الذابلتان عالقتان بمقلتيها الناعستين ثم قال بلهجةٍ كلها ضراعة وتوسّل :

— « إن رداءكِ واسعٌ فضفاض فعليك بالله أن تخبئيه فى صدرك ... فتصبح فرنسا الحبيبة فى صدر امرأة ، وإنه والله لحصنٌ آمن من برلين »

وصمت هنيهة أطلق فيها من صدره المجهود زفرةً لاهبةً ثم قال بلهجة السيد الآمر :

— « أسرعى يافتاة »

ونزلت الفتاة عند رغبته وأذعنت لمراده فراحت تفتح صدرها بأصابعها اللدنة الناعمة وراح هو يتملى بنظر البائس المحزون من روعة الفجوة الضاحية بين النهدين السريّين ، حتى إذا وضعت العلم المطوىّ فيها ، وأخذت تزرّر صدارَها وهنَ منه العزم وخارت القوى ، فهوى جسمه ، وكاد يقع على الأرض تحت قدميها الصغيرتين لو لم تسعفه بذراعيها العبلاوين المفتولتين ، فاتكأ عليهما قليلاً ثم ارتعش بينهما ارتعاشة الطائر الجريح وتململ بينهما بحركة خفيفة مؤلمة حاول أن يستجمع فيها قواه لينتصب واقفاً وجمجم لنفسه بصوت خفيض متقطع سمعتْهُ الفتاة جلياً واضحاً :

— « يلوح لى أن الموت أدنى إلىّ مما كنتُ أحسب ، نخيرٌ لى إذنْ أن أذهب فى سبيلى »

ثم التفت إلى الفتاة وحدّق فى محياها الوضيء القسمات بعينيه السوداوين الكئيبتين وقال لها :

— اصغى لما أقوله لك ولا تحاولى أن تعترضى على مشيئتى ... أجدى عليك ألا أبقى هنا ، فبقائى شرٌّ كله ، ووبالٌ عليك وعلى ذويك أجمعين ... سأسير على بركة الله وحسبى أنى أودعتُ العَلَم فى حرز حريز ... وحذارِيك الألمان يا فتاة ... فاذا شئت أن تحسني إلى نفسك فأنكرى عليهم رؤيتك لى ... لا بل عليك أن تنكريها الانكار كله

وسيثقون بقولك من غير ريب ، فالوقت لا يزال باكراً ... أتفهمين ؟ ! »

وسكت وكل ما فيه ينم على اليأس الفادح والألم المر ؛ ونظر حوله نظرات بطيئة فاحصة كأنه راح يودع ذلك المحيط الزاهر المغمور بالجمال الفطريّ الساحر ، ويشيع هاتيك الأرباض التي يهدهدها سجيع البلابل وتغريد العنادل كل فجر ، ويناغيها كلّ مساء حفيف الأوراق في الغصون المُلْد الندية وهينمة النسيم الرخي في سوق(١) السنابل الثرية . ولما هم بالمسير استوقفته الفتاة بنظرة كلها هوى وجوى ، وقالت له وقد ضرج الخفر خديها النضرين بحمرة الشفق الحالي : « قبلني — على الأقل — قبل رحيلك . هبني لثمة واحدة من ثغرك الشنيب . وارشف مرة — لاغير — لماىَ قبل منآك ! »

فجمد الجندي في مكانه بارد النظرات ، وقد وقفت هي أمامه ملتهبة العاطفة يقدها اليأس ، وقوامها الرشيق ، وشبابها النضر الرطيب ، وجسمها المغرى الفاتن ، وألقى عليها نظرة ضمّنها كل معاني الزهد والاحتقار ، وقلب شفتيه ، وهزّ منكبيه وتمتم :

— « واهاً لكن معاشر النساء ! إنكن جميعاً في العاطفة سواء ؛ ... طُبعتنّ بطابع انثوى واحد ، وجُبِلتنّ على شاكلةٍ واحدة ! »

وصمت وهو يلهث ، كأنما جشم نفسه مشقة لا قبل له باحتمالها إلا بجهد ، حتى إذا هدأت أنفاسه واستراح التفت إليها ثانية وقال :

— « إنك تحملين فرنسا في صدرك أيتها الفتاة و ... »

وضحك ضحكة هادئة مقتضبة واستطرد في عبارته :

« وأنا رجل على شفير الهاوية وأوشك أن أموت ... والاحتضار على قيد باعٍ مني وتتحدثين إلى مع ذلك كله عن الهوى والحب ، هيه ... »

وراح صدره يهبط ويعلو بسرعة ، وفؤاده يخفق حتى ليكاد يسمع وجيبُه ؛ فلما أحس بشيء من الراحة تابع قوله بشيء من المرارة كثير :

« لا شأن لى بالهوى ... إنها الحياة التي ابتغى ؛ ... هى الحياة التي أحتاجها أيتها الغانية ! »

لقد رماها بهذه الكلمات المقتضبة القاسية ، وإن هى إلا أحجار تنثال لا ألفاظ تقال ، ثم سار الهوينى ، وانطلق يدلف في سبيله دلفةَ العاني الكليل

وأما هى فقد انثنت بسكون على الحاجز الخشبي واليأس يرمض منها الجوارح ويقضّ منها الحشا ، تواكبه نظراتها الحزينة وهو يشق طريقه بين سنابل الحقل كفيء الخطى وئيدها . ولما ابتعد عنها ولم تعد تسمع حركة ولا نأمة ، ولم يبق لها إلا ارتقاص الأزهار بين أكف النسمات ، وارتعاش النباتات بين أنامل الهواء ، لكمت صدرها الجيب الفاتن لكمةً أو لكمتين وصاحت من فؤادٍ متبول وحشاشة كلمى :

— « فرنسا ! ! أنا أكره فرنسا وأمقتها ! »

ورأرأ الدمع في محجريْها ولم يلبث أن انهمر على خديها الملتهبين صبيباً سخيناً

جورج سلستي

(١) جمع ساق